

سليمانى فى منزل «ذو الفقار»... معزّياً



بعد يومين من الهجوم الإسرائيلي على القنيطرة في كانون الثاني 2015، زار قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الإيراني، العميد قاسم سليمانى، روضة الشهداء في الغبيرى. انتشرت صورة له وهو يتلو آيات من القرآن فوق ضريح الشهيد عماد مغنية وابنه جهاد.

قبل الوصول إلى هناك، كان قد توجه إلى منزل عائلة الشهيد جهاد، وعزى أهله وإخوته، وخاله السيد مصطفى بدر الدين.

ليلة السبت الماضى، تكرّر المشهد. حضر سليمانى مجدداً إلى الغبيرى، لكن هذه المرة ليعزى عائلة بدر الدين به.

ليست المرة الأولى التي يدخل فيها «بيت الأحزان»، حيث أضيفت صورة جديدة إلى صور الشهداء. يجلس صديق العائلة بين جميع أفرادها، يتلو الآية القرآنية (ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون)، لبدأ الحديث حاملاً سحّة ترابية في يده اليمنى، فيما يزيّن خاتم عقيق

يده اليسرى. توجه بالكلام إلى أم الشهيد، السيدة أم عدنان: «لقد فقدنا قائداً وأخاً عزيزاً. هذا المصاب هو مصاب للأمة الإسلامية، إذ إن شخصية كشخصية السيد ذو الفقار لا يمكن اختصار خسارتها في بلد أو منطقة أو ضاحية».

وأضاف: «عائلة مجاهدين قدّمت الحاج رضوان وشاباً مثل جهاد، ليس جديداً عليها أن تقدّم المزيد من الشهداء».

كان ذو الفقار يستحضر طيف عماد وجهاد. لا ينسى أن يذكرهما دائماً، لكن في الفترة الأخيرة ارتفعت، حسب مقربين منه، نسبة الكلام عنهما. لقد قرب الموعد، وما استحضار طيفهما إلا دليل على ذلك.

منذ عهد بعيد، ٤٠ سنة من الجهاد والعطاء، كان السيد ذو الفقار يتحدث عن طلبه للشهادة، مؤكداً أنها هدفه الأسمى. قد تحققت أمنيته، وهو ما كان ينتظره منذ انطلاقة المقاومة: «كنّا على يقين بأن قائداً مثل ذو الفقار يطلب الشهادة منذ ريعان شبابه، ومنذ بدايات انطلاقة مع المقاومة. لذلك، ليس مفاجئاً أن تنتهي حياته بها، لا موتاً على الفراش»، يؤكد سليمان. ثم يهمس لعلي، ابن الشهيد الذي خيّم عليه حزن الهجران: «ستكون أنت على مسار أبيك، قدوة — مثله — لجيلك، ولكل الشباب».

جلس نحو ثلث ساعة، وبعدها توجه إلى روضة الشهيدين. البداية من ضريحَي الشهيد عماد، والسيد ذو الفقار. جثا وتمتم بآيات قرآنية. ثم مرّ على أضرحة الشهداء مسلماً؛ يقرأ الأسماء، ويسأل عن بعضهم. أثناء عبوره بهدوء تام بينهم، استحضر ذكرى القائد علي فياض «علاء البوسنة» الذي قضى شهيداً على طريق خناصر — حلب في شباط الماضي. سأل عن ضريحه، ليأتيه الجواب بأنه في بلدته أنصار. سلّم على عوائل الشهداء الموجودة هناك، والتقى، صدفةً، بجريح من جرحى المقاومة يزور رفاقه، لترسم ابتسامة وديعة على شفتيه.

صافح الحاج قاسم

عائلات الشهداء في الروضة، وسأل عن ضريح «علاء البوسنة»

كان سليمان يستغرب كيف يغيب السيد ذو الفقار، منذ بدء الأحداث في سوريا، عن عائلته لشهرين أو

ثلاثة، ليعود بعدها أياماً قليلة، يعوِّض فيها عن كل ما فاتته تجاههم.

يؤكد من عاشروه أن بدر الدين كان يحرص على ألا تفوته مناسبة تخصُّ أحد أفراد عائلته دون تقديم هديته. واجباته العائلية متقدِّمة على كل شيء، حتى على الأمور الأمنية. عام 2012، وفي عرس ابنته، أصرَّ - بعد انتهاء الزفاف على الحضور إلى القاعة، والتقاط الصور التذكارية مع العائلة والعروس، كذلك تأتي «صلة الرحم» في مقام «المقدَّس» لديه. واطلب على زيارة أخيه المريض، دون مراعاة للأمور الأمنية، أسبوعياً في المستشفى بعدما أُصيب عام 2007 بالسرطان إلى حين وفاته بعدها بسنتين.

يهمه أن تجتمع العائلة على مائدة إفطار شهر رمضان، ويتابع تفاصيل أخبار كل الذين حوله، من صغيرهم إلى كبيرهم. ينصح المقبلين منهم على الجامعات، بالاختصاصات التي يجب أن يدرسوها. ويوجههم لسبب محدّد: «إذا لم تتمكن من خدمة المقاومة على الصعيد العسكري، فاحمد مجتمع المقاومة باختصاص يفيدهم».

على الصعيد الفني، يحب الأناشيد القديمة. لا يقترب من الجديدة على تنوُّعها. يتابع أفلام «هوليوود»، التي يلتفت فيها إلى التصوير وحبكة السيناريو. في لبنان قدّم إلى المشرفين على مسلسل «الغالبون»، فرقة من القوة الخاصة لحزب الله، حتى يمثلوا المشاهد العسكرية المطلوبة فيه، إذ إنها تحتاج إلى من يتقنها حسب تعبيره.

كانت العائلة تنتظر حضوره من جديد لرؤية وجهه، والأمل يغذي انتظاراتها، لكن لمرّة أخيرة، كان خيراً له إخفاء وجهه عن المشتاقين إليه.

لا سُبُيات هنا في هذا المنزل، بل يقظات تلحقها يقظات. لقد اعتاد أهله الشهادة، والسؤال نفسه يتردّد إلى ما لا نهاية: «أرضيتَ يا ربُّ؟»، يلحقه الجواب نفسه أيضاً: «خذ حتى ترضى».

المنزل بات مأهولاً، مرة جديدة بالذكريات. تعرّفنا إليه بقدر من الصمت، وبهجة المعرفة. بعد 55 عاماً، عمره لا يختصر برقمين وفاصلة. لا صور تُمحي، ولا مكان يزول بعدما حفرت إنجازاته فيه. من بدء المقاومة إلى يومه الأخير، لم ينتقم الزمان من تفاصيله شيئاً. وها هو قد خرج إلى الضوء، كما ستخرج بعض إنجازاته يوماً. ومهما كُشف، سيبقى المكتوم أكثر، وأعظم سراً.

المصدر: جريدة الأخبار

